# "وعلّمَ آدم الأسماء كلها" في ميزان نظرية الرموز الثقافية

**محمود الذوادي***

نحاول في هذه الدراسة التعرّف على معنى الآية الحادية والثلاثين من سورة البقرة، المتمثّلة تحديداً في قوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ (البقرة:٣١). ونسعى أيضاً إلى الحصول على أقرب تأويل لمعناها، مستعينين بآراء المفسّرين، وبرؤى علوم الإنسان والمجتمع المعاصرة. وهذه بعض تأويلات مجموعة من المفسّرين والمفكرين:

## أولاً: نماذج تأويلية للآية:

### ١. تفسير ابن عاشور:

ففي كتابه تفسير "التحرير والتنوير" يُلقى الشيخ، في خمس صفحات، أضواءً على معنى هذا الجزء من الآية الحادية والثلاثين من سورة البقرة.[١] يشرع ابن عاشور في تفسيره بما يشبه المقدمة لمحاولة تفسيره اللاحق، فيقول: "... فإنَّ تعليم آدم الأسماء كلَّها وإظهار فضيلته بقبوله لهذا التعليم دون الملائكة جعله الله حجة على قوله لهم: إنِّي أعلم ما لا تعلمون، أي ما لا تعلمون من جدارة هذا المخلوق بالخلافة في الأرض... فهذا الخليفة هو آدم، وأنَّ آدم اسم لذلك الخليفة. وهذا الأسلوب من بديع الإجمال والتفصيل والإيجاز."[٢]

بعد ذلك يتطرّق ابن عاشور إلى معنى كلمة "آدم" في اللغات الأُخرى، مثل العبرية والفارسية وغيرهما، فيستشهد بقول الجوهري في أصل كلمة "آدم"، الذي يرى أنّ أصلها "أأدم" على وزن "أفعل" من الأدمة؛ وهي لون السُّمرة، فقُلبت الهمزتان حرف مدّ. ثمّ

---

* أستاذ علم الاجتماع في جامعة تونس. البريد الإلكتروني: m.thawad@yahoo.ca

[١] ابن عاشور، محمد الطاهر. **تفسير التحرير والتنوير**، تونس: الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤م، ج١، ص٤٠٧-٤١١.

[٢] المرجع السابق، ص٤٠٧.

ينتقل ابن عاشور إلى شرح معنى كلمة "الأسماء" الواردة في مطلع الآية الكريمة، فيقول: "والأسماء جمع اسم وهو في اللغة لفظ يدل على معنى يفهمه ذهن السامع." ويرى ابن عاشور أنّ الاسم مشتق من السمو؛ لأنّه لما دلّ على الذات فقد أبرزها.

ويبدأ ابن عاشور في تفسير كلمة "الأسماء" -بيت القصيد في هذا الجزء من الآية الكريمة- فيقول: "والظاهر أنَّ الأسماء التي عُلّمها آدم هي ألفاظ تدل على ذوات الأشياء التي يحتاج نوعُ الإنسان إلى التعبير عنها لحاجته إلى ندائها، أو استحضارها، أو إفادة بعضها مع بعض، وهي أي الإفادة ما نسميه اليوم بالأخبار أو التوصيف. فيظهر أنَّ المراد بالأسماء ابتداءً أسماء الذوات من الموجودات مثل الأعلام الشخصية، وأسماء الأجناس من الحيوان والنبات والحجر والكواكب، مما يقع عليه نظر الإنسان."[٣]

ويتحدث ابن عاشور بعد ذلك عن طرائق تعلّم آدم للأسماء، فيشير إلى أهمية دور اللغة بقوله: "وأيا كانت كيفية التعليم فقد كان سبباً لتفضيل الإنسان على بقية أنواع جنسه بقوة النطق وإحداث الموضوعات اللغوية للتعبير عما في الضمير."[٤] وعلى الرغم من تأكيد ابن عاشور على دور قوة النطق في تفضيل الإنسان إلاّ أنّه يبقى غامضاً في حديثه عن معنىً شفّاف لكلمة "الأسماء"، وعلاقة ذلك باللغة. وفي رأينا، إنّ منظور العلوم الاجتماعية والإنسانية يساعد كثيراً على فهم موضوع تعليم الأسماء لآدم وحده، كما يُعبّر عن ذلك مطلع الآية الثلاثين من سورة البقرة، وهذا ما سنُفصّل فيه القول لاحقاً في هذا البحث.

**٢. تفسير ابن كثير:**

ننظر الآن إلى ما جاء بخصوص مطلع الآية: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ (البقرة:٣١) في تفسير شهير قديم للقرآن الكريم بعنوان (تفسير القرآن العظيم) لعماد الدين ابن كثير. يُؤكّد هذا الأخير أنّ تعليم الله الأسماء كلّها لآدم هو تشريف له على الملائكة وغيرهم.

[٣] المرجع السابق، ص٤٠٩.
[٤] المرجع السابق، ص٤١٠.

ويسرد ابن كثير قائمة بأسماء مَن لهم تفسير لمعنى ذلك الجزء من الآية الكريمة، ويخلص إلى القول بأنّ "لفظ "وعلّم آدم الأسماء كلها" يعني عنده –ولدى بقية مَن ذكر تفسيراتهم، مثل: ابن عباس، والضحاك، وابن جرير، والبخاري– أنّ الله قد علّم آدم أسماء كل شيء؛ أي أسماء المخلوقات جميعاً."[٥]

وقد أشار ابن العباس إلى أنّ الله علّم آدم أسماء ولده وأسماء الدواب، فقيل هذا الحمار، وهذا الجمل، وهذا الفرس. فالأسماء هي التي يتعارف بها الناس: إنسان، ودابة، وسماء، وأرض، وسهل، وبحر، وخيل، وحمار، وأشياء ذلك من الأمم وغيرها. ثمّ يستشهد ابن كثير بالحديث الشريف الآتي: "فيأتون آدم فيقولون أنت أبو الناس خلقك الله بيده وأسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كل شيء"، ويُعلّق على ذلك مسترسلاً: "فدل هذا على أنه علَّمه أسماء جميع المخلوقات، ولهذا قال: "ثم عرضهم على الملائكة" يعني المسميات كما قال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة."

### ٣. تفسير عبد الفتاح طبارة:

يلخص المفسّر السوري المعاصر عفيف عبد الفتاح طبارة معنى الآية الكريمة "وعلّم آدم الأسماء كلها" في قوله: "ألهمه الله معرفة ذات الأشياء التي خلقها ومعرفة أسمائها ومنافعها."[٦] ويضيف طبارة شارحاً معنى "الأسماء كلها" بقوله: "يدل على أنه علّمه أسماء كلِّ ما خلق الله من المخلوقات من إنسان وحيوان ودابَّة وطيْر وغير ذلك، ويصحُّ حمل الأسماء على معرفة ذوات الأشياء، ومعرفة ما يخصها من المنافع والمضار."[٧]

ويستشهد طبارة بما جاء في تفسير الشيخ متولي الشعراوي: "والعجيب أنَّ الطريقة التي علّم الله سبحانه وتعالى آدم بها هي الطريقة نفسها التي تتبعها البشرية إلى يومنا هذا، فأنت لا تعلم الطفل بأن تقص عليه الأفعال، ولكن لا بدّ أن تبدأ تعليمه بالأسماء

[٥] ابن كثير، عماد الدين. **تفسير القرآن العظيم**، بيروت: دار الجيل، د.ت، ج١، ص٧٠–٧١.
[٦] طبارة، عفيف عبد الفتاح. **روح القرآن: تفسير سورة البقرة**، بيروت: دار العلم للملايين، ط١، ٢٠٠٧م، ص٤٧.
[٧] المرجع السابق، ص٤٨.

والمسميات تقول له: هذا كوب وهذا جبل وهذه شمس وهذا قمر، وبعد أن يتعلّم المسميات يستطيع أن يعرف الأفعال ويتقدم في التعليم بعد ذلك."[٨]

### ٤. تفسير الجابري:

لا يكاد يذكر الجابري بخصوص معنى قوله تعالى: "وعلّم آدم الأسماء كلها" سِوى الآتي: "أسماء المخلوقات التي خلقها الله بعد خلق آدم."[٩] ويُقرّ الجابري بأنّ ما ذكره المفسّرون بهذا الصدد لا يختلف عمّا ورد في التوراة، إلاّ أنّه يرى أنّ أقوال المفسّرين حيال هذا الموضوع كثيرة ومتناقضة ومأخوذة من الإسرائيليات، ويستشهد على ذلك بنص التوراة الوارد بخصوص تعلّم آدم للأسماء: "كان الرب الإله قد جبل (خلق) من التراب كل وحوش البرية وطيور الفضاء وأحضرها لآدم ليرى بأي أسماء يدعوها، فصار كل اسم أطلقه آدم على كل مخلوق حَيٍّ اسماً له."[١٠] والظاهر أنّ تفسير الجابري هو من نوع التفسير الحرفي لكلمة "أسماء"، كما ذهب إلى ذلك نص التوراة المشار إليه آنفاً.

وخلاصة القول ممّا ورد في كلام بعض المفسّرين والمفكرين أنّهم جميعاً لم يحاولوا إيجاد تأويلات لمعنى كلمة "أسماء" تتجاوز دلالتها الحرفية. فحتى تفسير الشيخ متولي الشعراوي ليس مُقنِعاً بمشروعية ضرورة تقديم تعلّم الأسماء على تعلّم الأفعال. فالأمر يحتاج هنا إلى كثير من التعمّق في علم النفس، خاصة علم النفس المعرفي/ الذهني؛[١١] لكي يثبت بالدليل أنّ هناك حكمة بالغة من تعلّم الأسماء قبل الأفعال وبقية المفردات اللغوية كالنعوت والحروف.

---

[٨] المرجع السابق، ص٤٨.

[٩] الجابري، محمد عابد. **فهم القرآن الحكيم: التفسير الواضح حسب ترتيب النزول**- القسم الثالث، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٩م، ج٣، ص٤٢.

[١٠] المرجع السابق، ص٤٣.

[11] Wilber, K. *Integral Psychology: Consciousness, Spirit, Psychology, Therapy*, Boston, Shambhala, 2000.

- Martin, B., Rumelhart, D. Editors. *Cognitive Science***,** San Diago, Academic Press, 1999.

- Andresen, J., Forman, R. Editors. *Cognitive Models and Spiritual Maps*, Charlottesville, Imprint Academic, 2002.

**ثانياً: سبيل الفهم إلى معنى الآية**

في محاولة لكشف الستار عن دلالة قوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾، نحتاج إلى قراءة الآيات السابقة واللاحقة لها في سورة البقرة: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ (البقرة: ٣٠-٣٣)

تُبرز هذه الآيات الكريمة ثلاث ميزات لآدم الإنسان، هي: تفرّده في خلافة الله في الأرض، لا يشاركه في تلك الخلافة حتى الملائكة، وتعليم الله آدم -دون الملائكة- الأسماء كلها، واقتصار العلم بتلك الأسماء على آدم بعد الله تعالى. ويتضح من هذه القراءة أنّ فضيلة العلم هي التي أهّلت آدم الإنسان -دون الملائكة- لمشروعية منصب الخلافة في الأرض، وأنّ المشروع الإلهي لمنح آدم وحده الخلافة رغم تساؤلات الملائكة واستغرابهم؛ هو مشروع إرادة إلهية، مبني على العلم الإلهي الكامل بكل شيء في السماوات والأرض: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ (البقرة: ٣٣). وبعبارة أُخرى، فإنّ كسب رهان العلم المحدود لدى الإنسان هو أساس مشروعية تأهّل آدم لمنصب الخلافة في الأرض، وإنّ رحاب العلم الإلهية اللامتناهية هي التي جعلت الحكمة الإلهية تُبصر ما لا تراه الملائكة في خلق آدم وتشريفه بالخلافة.

**١. السؤال المعرفي الأساسي:**

بصرف النظر عن الخارطة المعرفية التي يمكن الإفادة منها في تفسير الحكمة من تعلّم الأسماء قبل غيرها، فإنّ سؤالاً معرفيّاً يبقى مطروحاً ينتظر الإجابة عنه، وهذا السؤال هو: ما الذي أهّل الإنسان وحده من بين كل المخلوقات -بمَن فيها الملائكة- ليكون قادراً وحده على تعلّم تلك الأسماء كما جاء واضحاً في نص الآية؟

## ٢. نظرة العقل لأصول تميّز آدم/ الإنسان:

رأينا بوضوح في القرآن الكريم (النقل) أنّ تميّز آدم/ الإنسان على الملائكة وتأهّله وحده لمنصب خلافة الله على الأرض، يرجع إلى نوع خاص من العلم أُعطي لآدم، وحُرمت منه حتى الملائكة.

وفي محاولة لتقديم فهم أكثر شفافية للموضوع، نورد مقولة العقل التي تعتمد في تأويلها معنى قوله تعالى: "وعلّم آدم الأسماء كلها" على رؤى الإنسان والمجتمع ومفاهيمهما ونظرياتهما وعلومهما. ولعلّ ممّا يساعد على فهم ظاهرة انفراد الإنسان بتعلّم الأسماء وتفسير هذه الظاهرة، البحثُ عن شيء آخر يتفرّد به الإنسان عن سواه من المخلوقات الأُخرى. وفي حال أمكن ذلك، يمكن افتراض وجود علاقة بين الاثنين.

لقد أكّدت بحوثنا المتكرّرة أنّ الجنس البشري يتميّز عن غيره من المخلوقات الأُخرى بما نُسمّيه منظومة الرموز الثقافية: (اللغة، والفكر، والدين، والمعرفة/ العلم، والأساطير، والقوانين، والقيم، والأعراف الثقافية.)[١٢]

والسؤال الرئيس الذي قد يتبادر إلى الذهن، هو: ما طبيعة العلاقة بين قدرة آدم على تعلّم الأسماء والرموز الثقافية التي يتميّز بها الإنسان؟ لقد أثبت تحليلنا لأثر الرموز الثقافية في السلوك البشري أنّ أثرها شامل يمسُّ حتى الجوانب البيولوجية من جسم الإنسان، كما يبيّن الرسم الآتي:

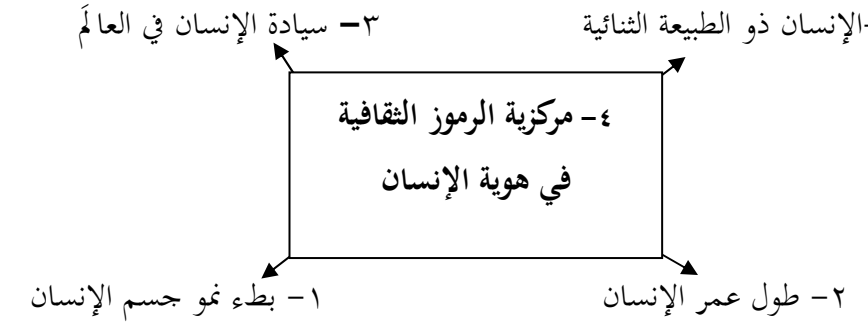


[١٢] الذوادي، محمود. **المقدمة في علم الاجتماع الثقافي برؤية عربية إسلامية**، بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ٢٠١٠م. انظر أيضاً:

- الذوادي، محمود. **الثقافة بين تأصيل الرؤية الإسلامية واغتراب منظور العلوم الاجتماعية**، بيروت: دار الكتاب الجديد المتحدة، ٢٠٠٦م.

إنّ المتأمِّل مركزية الرموز الثقافية في هوية الإنسان (آدم) قد يطرح سؤالاً محوريّاً في صميم الانشغال بفهم الإنسان، هذا المخلوق الفريد الذي يُمثِّل حقّاً لغزاً كبيراً في هذا العالم، والسؤال هو: هل الإنسان كائن ثقافي بالطبع؟ وبعبارة أُخرى، هل منظومة الرموز الثقافية مركزية في صُلْب هوية الإنسان؟

إنّ الإجابة الشافية عن هذين السؤالين قد تتطلّب آلاف الكلمات في مقال، أو دراسة، أو كتاب، أو حتى العديد من المجلدات. ويمكن للمرء أن يتبنّى –مثلاً– منظور الفلسفة، أو العلوم الاجتماعية، أو كليهما لكي يكتب أطروحة متماسكة في هذا الموضوع. فنحن نعرف جيداً ما دوّنته أقلام الفلاسفة والمفكّرين الاجتماعيين تحديداً –من مختلف الثقافات والعصور– عن مقولة مشابهة، شعارها "الإنسان مدني/ اجتماعي بطبعه". ومن جهتنا، فنحن نرى أنّه ليس من الضروري الإطناب في النقاش، والجدال في جوهر الحجج المؤكّدة للطبيعة الثقافية المميّزة للإنسان؛ إذ يمكن حسم المسألة في فقرات وسطور محدودة.

### ٣. أستعمل رموزاً ثقافية، إذن أنا إنسان:

ولبلوغ الهدف المنشود، فإنّنا نعتمد على الجمع بين العلوم الاجتماعية والعلوم الطبيعية؛ إذ يصعب التعمّق في فهم طبيعة تميّز الإنسان مع غياب أيٍّ من هذين الصنفين من العلوم. فلا يجوز علميّاً تحليل ذات الإنسان وعمق كينونته من دون الحديث عن العوامل البيولوجية والفيزيولوجية (الجسمية) عند الإنسان. كما لا تُقبل محاولة فهم هذا الأخير بتهميش أو إقصاء كامل لأهم ما يميّز الجنس البشري بطريقة فاصلة حاسمة عن بقية الأجناس الحية الأُخرى، وهو منظومة الرموز الثقافية: اللغة، والفكر، والدين، والمعرفة/ العلم، والأساطير، والقوانين، والقيم، والأعراف الثقافية. ويمكن صياغة فكرتنا هذه بشيء من التصرّف في تعبير الفيلسوف الفرنسي الشهير ديكارت القائل: "أفكر، إذن أنا موجود"، ليصبح في مقولة طرحنا الفكري في هذا البحث: "أستعمل رموزاً ثقافية، إذن أنا إنسان."

وللإجابة عن السؤال الآنف الذكر: هل الإنسان كائن ثقافي بالطبع؟ نقول: نعم، إنّ الإنسان هو حقّاً كائن ثقافي بطبعه قبل أن يكون اجتماعيّاً بالطبع.

يستند هذا القول إلى ملاحظات رئيسة حول خمسة معالم ينفرد بها الجنس البشري عن غيره من الأجناس الحية الأُخرى. إنّها ملاحظات دقيقة تؤكّد -في نهاية المطاف- مركزية الرموز الثقافية في هوية الإنسان. وحسب عِلْمِنا، فهي ملاحظات جديدة توصّلنا إليها، ولا نعرف إذا كان قد اهتدى إليها -كلَّها أو بعضها- علماء الأنثروبولوجيا والاجتماع المعاصرون في دراساتهم للثقافة/ الرموز الثقافية. وهذه أبرز الملاحظات والتعليقات الخاصة بها:

١. يتصف النمو الجسمي (البيولوجي الفيزيولوجي) لأفراد الجنس البشري ببطء شديد مقارنة بالنمو الجسدي السريع الذي تمتاز به بقية الكائنات. ويصلح هذا مثالاً لتفسير ظاهرة عجز الأطفال عن المشي المبكّر، أو البلوغ الجنسي المبكّر أيضاً، كما هو الحال عند صغار الحيوانات.

٢. يتمتع أفراد الجنس البشري عموماً بأمد حياة (سِنّ) أطول من معظم الحيوانات.

٣. ينفرد الجنس البشري بأداء مهمة السيادة (الخلافة) في هذا العالم دون وجود منافسة حقيقية له من بقية الأجناس الأُخرى على وجه الأرض. وقد رأينا تأكيد نص النقل في القرآن الكريم لتميّز آدم/ الإنسان وحده بمشروعية الخلافة؛ حتى على الملائكة أنفسهم.

٤. وكما ذكرنا من قبل؛ يتميّز الجنس البشري بصورة فاصلة حاسمة عن الأجناس الأُخرى بما أطلقنا عليه اسم منظومة الرموز الثقافية.

٥. يختص أفراد الجنس البشري بهوية ثنائية (الجانب الجسدي، والجانب الرمزي الثقافي). ويسمح هذا التصور الجديد بتغيير التصور التقليدي لهوية الإنسان، المنادي بأنّ الإنسان جسد وروح، لتصبح هوية الإنسان عندنا جسداً ورموزاً ثقافية، فيُضفي ذلك

شفافية أكبر على فهم السلوكات البشرية الفردية والجماعية المتأثرة في العمق بمنظومة الرموز الثقافية ذات الصدارة المركزية في هوية الإنسان وتفسيرها.

والتساؤل المعرفي المشروع الآن، هو: هل توجد علاقة تربط بين تلك المعالم الخمسة التي يتميّز بها الإنسان؟

أ. هناك علاقة مباشرة بين المَعْلميْن: الأول، والثاني؛ فالنمو الجسمي البطيء لأفراد الجنس البشري يتطلّب –بالضرورة– معدل سِنّ أطول لتحقيق مراحل النمو والنضج المختلفة المتعدّدة المستويات. فالعلاقة بين الاثنين هي –إذن– من نوع السببية.

ب. إنّ الهوية الثنائية التي يتصف بها الإنسان هي أيضاً ذات علاقة مباشرة بالعنصر الجسدي (المِعْلم الأول) للإنسان، والعنصر الرمزي الثقافي (المِعْلم الرابع).

ت. عند البحث عن علاقة سيادة (خلافة) الجنس البشري بالمعالم الأربعة الأُخرى، فإنّ المِعْلميْن: الأول، والثاني لا يؤهّلانه –على مستوى القوة المادية– لكسب رهان السيادة على بقية الأجناس الحية؛ فالإنسان أضعف جسديّاً من العديد من الكائنات الأُخرى. ومن ثَمّ، يمكن القول إنّ لسيادة الجنس البشري علاقة قوية مباشرة بالمِعْلميْن: الرابع، والخامس (الرموز الثقافية، والهوية الثنائية). أمّا العنصر المشترك بين هذين المِعْلميْن فهو منظومة الرموز الثقافية. وهكذا يتجلّى الدور المركزي الحاسم لمنظومة الرموز الثقافية في تمكين الإنسان وحده من السيادة في هذا العالم؛ أي إنّ الجانب غير المادي من الإنسان (الرموز الثقافية)، هو الذي يؤهّله وحده للسيادة (الخلافة) في هذا العالم على بقية الكائنات الأُخرى الفاقدة لذلك النوع من الرموز الثقافية التي يتميّز بها الإنسان.

وعلى العموم، فنحن لا نقول بالطريقة التقليدية التي ترى أنّ الرموز الثقافية غير مادية بمعنى أنّها عناصر روحية، بل نقدّم تصوراً جديداً ملموساً يُفسّر خلّوها من اللمسات المادية. فعناصر الرموز الثقافية كاللغة والفكر والدين... هي عناصر بشرية لا وزن لها ولا حجم بالمعنى المادي للأشياء المادية، وهذه الأخيرة لا بُدّ أن يكون لها وزن وحجم بصرف النظر عن صغرهما وضآلتهما. وهذا يعني –في نهاية المطاف– أنّ الجانب

غير المادي/ الرمزي الثقافي هو بيت القصيد في كينونة الإنسان، وهو ما تُلحّ على أهميته معظم المدارس الفلسفية البشرية عبر العصور، وكذلك الديانات، وفي طليعتها الإسلام.

إنّ فقدان عالم الرموز الثقافية لعاملي الحجم والوزن يساعد أيضاً على تفسير سرعة التواصل المدهش اليوم –بالكلمة المكتوبة، والمنطوقة، والصورة– مع ثورة الاتصالات عن طريق الفاكس والإنترنت والهاتف وغيرها من وسائل التواصل الحديثة. فالتواصل بتلك الوسائل يُلغي كليّاً عاملي الوزن والحجم من الأشياء المرسلة؛ سواء أكانت مكتوبة أم منطوقة. ويُفسّر غياب هذين العاملين (الوزن، والحجم) أيضاً إمكانية وضع محتوى كَمّ هائل من عشرات ومئات آلاف صفحات المجلات والكتب والمجلدات في عدد قليل من الحاويات الإلكترونية الصغيرة جدّاً (Flash Disks).

ث. إنّ الرموز الثقافية تسمح أيضاً بتفسير المِعْلميْن: الأول، والثاني. وهو أمر يبدو للوهلة الأولى عجيباً غريباً جدّاً؛ لا لقُرّاء هذا البحث فحسب، بل للعامة والخاصة على حدّ سواء، ونأمل أن يزول العجب والغرابة بعد فهم تفسيرنا لهذا الأمر. وكما يقال: "إذا عُرف السبب بَطُل العجب".

يُعزى النمو البطيء لجسم الإنسان إلى اشتمال عملية النمو لديه على جبهتين: جسمية، ورمزية ثقافية؛ وذلك خلافاً للنمو الجسدي السريع للكائنات الأُخرى، الذي مَردّه فقدانها منظومة الرموز الثقافية بمعناها البشري الواسع والمعقد. والملاحظ في هذا الصدد أنّ الأطباء وعلماء البيولوجيا لا يكادون يراعون جبهة الرموز الثقافية في دراساتهم للإنسان؛ هذا الكائن الرمزي الثقافي بطبعه. ومع ذلك، فهم ما فتئوا يدّعون أنّهم ينتمون إلى العلوم الصحيحة. وأنّى لهذه العلوم أن تكون حقّاً صحيحة، وهي تُهمّش النظر إلى مركز هوية الإنسان (الرموز الثقافية)!

وتأسيساً على الأمثلة المتعلقة بمركزية الرموز الثقافية في هوية الإنسان، يمكن ابتكار مفهوم جديد يُدعى تثقيف البيولوجيا (Culturobiology)، وهو يعني أنّ الثقافة/ الرموز الثقافية تُؤثّر في بيولوجيا الإنسان. وعوداً على ذي بَدءٍ، يُلخص الرسم المشار إليه آنفاً مركزية الرموز الثقافية في ذات الإنسان، فيعطي بذلك مشروعية محكمة لفكرتنا

القائلة بأنّ الإنسان كائن ثقافي بالطبع؛ ما يعني أنّ مقولة منظومة الرموز الثقافية تُمثِّل نظرية، لأنّ تعريف هذه الأخيرة في العلوم الاجتماعية يصفها بأنّها إطار فكري يسمح بتفسير عدّة ظواهر فردية واجتماعية في سلوكات الناس، وحركة المجتمعات والحضارات البشرية.[١٣]

ممّا تقدّم نجد أنّ منظومة الرموز الثقافية في التحليل العقلي للعلوم الاجتماعية والإنسانية هي كبرى مميّزات الجنس البشري عن سِواه. وهي بذلك ميزة إنسانية تُشبه تميّز آدم/ الإنسان بالقدرة على تعلّم كل الأسماء الواردة في الآيات الكريمة من سورة البقرة المشار إليها آنفاً.

## ثالثاً: اللغة ونشأة الثقافة في المجتمع البشري

بعد الشرح العقلي القائل بأنّ منظومة الرموز الثقافية هي خصيصة إنسانية بامتياز، مثلها مثل تميّز آدم بتعلّم الأسماء كلها كما ورد في النقل (القرآن الكريم)، يتعيَّن علينا الآن متابعة التحليل العقلي المتعلق بمعرفة جذور ميلاد منظومة الرموز الثقافية عند الإنسان وحده. ولعلّ أسهل منهجية في هذا الصدد، هي تعرّف أهم عنصر في المنظومة يكون أكثر ترشّحاً كعامل حاسم لميلاد هذه المنظومة الثقافية المميّزة للجنس البشري. فالتحليل لطبيعة كل العناصر المكوّنة لمنظومة الرموز الثقافية أدّى بنا إلى اعتبار اللغة البشرية في شكليْها: المكتوب والمنطوق، المؤهّلة وحدها لبروز منظومة الرموز الثقافية عند الإنسان؛ إذ لا يمكن تخيّل وجود بقية عناصر الرموز الثقافية، كالدين والعلم والفكر، من دون حضور اللغة البشرية في شكلها المنطوق على الأقل. ومن ثَمّ، جاءت مشروعية نظرتنا وتفكيرنا بأنّ اللغة هي أمّ الرموز الثقافية جميعاً.

ونظراً لمركزية اللغة المنطوقة والمكتوبة في نشأة منظومة الرموز الثقافية؛ فإنّ وصف الإنسان بالحيوان الناطق هو وصف مشروع جدّاً، لأنّ أكثر ما يميّز الجنس البشري عن بقية الأجناس الأُخرى ويعطيه السيادة عليها بوساطة منظومة الرموز الثقافية، هو اللغة

[13] *Encyclopedia of Sociology*, Guilford/USA, the Dushkin Publishing Group, Inc, 1974.

المنطوقة والمكتوبة. وعلى الرغم من مركزية اللغة في هوية الإنسان، وما يتبعها من بروزٍ لمنظومة الرموز الثقافية في المجموعات والمجتمعات البشرية، فإنّ أشهر تعريف لمفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية الغربية المعاصرة لا يذكر اللغة بوصفها عنصراً مركزيّاً أساسيّاً في منظومة الثقافة. فقد عرّف عالم الأنثروبولوجيا البريطاني إدوارد برنارد تيلر (١٨٧١م) الثقافة (Culture) بأنّها "ذلك الكل المعقد الذي يتضمن المعرفة والعقيدة والفن والأخلاق والتقليد، وأي مقدرات وعادات يكتسبها الإنسان كعضو في المجتمع."

ويتمثّل قصور هذا التعريف الكلاسيكي للثقافة في إغفاله الإشارة إلى اللغة، وعدم منحها الصدارة في مكوّنات منظومة الثقافة. والواقع أنّ اللغة هي مُنشِئ ظاهرة الثقافة نفسها كما بَيَّنّا في تحليلنا لمنظومة الرموز الثقافية؛ أي إنّ العلاقة بين اللغة ومنظومة ثقافتها عند بني البشر هي علاقة عضوية جدّاً. ومن ثَمّ، يتضح قصور تعريف مفهوم الثقافة الذي لا يُشير بوضوحٍ إلى صدارة اللغة في تعريف مفهوم الثقافة البشرية.[١٤]

يتبيّن ممّا سبق أنّ نظريتنا للرموز الثقافية ترتكز على أنّ الثقافة هي ذلك الجانب غير البيولوجي (الفيزيولوجي) لهوية الإنسان الثنائية (الرموز الثقافية، والجسم)، وأنّ جانب الرموز الثقافية هو بيت القصيد في هوية الكائن البشري؛ أي إنّ هيمنة هذا الأخير على بقية الكائنات الحية الأُخرى وسيادته (الخلافة) عليها يأتي من الجانب غير المادي في هويته الثنائية (الرموز الثقافية)، وإنّ اللغة المنطوقة والمكتوبة هي مصدر تميُّز الجنس البشري عن سِواه بمنظومة الثقافة. ومن ثَمّ، فالإنسان ليس حيواناً ناطقاً فحسب كما قال قدماء الفلاسفة، بل هو أيضاً كائن رمزي/ ثقافي بالطبع. وبعبارة أُخرى، فإنّ تميُّز الكائن البشري عن سِواه من الكائنات الأُخرى بالقدرة على استعمال اللغة في شكليْها (المنطوق، والمكتوب) أهّله ليكون وحده مخلوقاً رمزيّاً ثقافيّاً بالطبع. وبمصطلح العلوم الاجتماعية الحديثة، يسهل القول إنّ علاقة الارتباط (correlation)بين اللغة المنطوقة والمكتوبة عند بني البشر، وحضور ظاهرة الثقافة في المجتمعات الإنسانية؛ هي علاقة متينة جدّاً.

---

[14] White, L. & Dillingham, A. (1973) *the Concept of Culture*, Edina, MI: Burgess International Group.

### – الرموز الثقافية وتعلّم آدم الأسماء

بعد البرهان على خصوصية مركزية الرموز الثقافية في صُلْب هوية الإنسان، تُطرح طبيعة علاقة الرموز الثقافية بخصوصية تعلّم الإنسان وحده للأسماء الواردة في الآية الكريمة ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ (البقرة: ٣١). فهاتان الخصوصيتان البشريتان تتطلّبان فهم نوعية العلاقة بين الاثنتين. ونظراً لانفراد الإنسان بتعلّم الأسماء كلها، كما يؤكّد ذلك القرآن الكريم؛ فإنّ إطار البحث ومنهجيته يشيران بوضوحٍ إلى أنّ الرموز الثقافية هي السبب في تمكّن الإنسان وحده من تعلّم الأسماء كلها؛ إذ إنّ المخلوقات الأُخرى –بمَن فيها الملائكة– فاقدة لمنظومة الرموز الثقافية بمعناها الإنساني المشار إليها أعلاه. ومن ثَمّ، فقد حُرمتْ من التمتع بالقدرة على تعلّم الأسماء كلها. وبناءً على ذلك، يجوز تأويل عبارة "الأسماء كلها" بعبارة "الرموز الثقافية كلها"؛ حيث تكون اللغة هي أمّ الرموز الثقافية جميعاً، كما رأينا من قبل. ويبدو أنّ أهم عنصر –بَعْدَ اللغة– في منظومة الرموز الثقافية هو العلم، كما وقعت الإشارة في حديثنا عن الميزات الثلاث للإنسان، الواردة في الآيات الكريمة المذكورة آنفاً (الخلافة، تعلّم الأسماء كلها، التميّز برصيد العلم). وبهذه المقاربة، يصبح معنى قوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ (البقرة: ٣١) أكثر وضوحاً وشفافيةً ممّا رأيناه عند المفسّرين والمفكرين المذكورين آنفاً.

### رابعاً: القرآن ومركزية الرموز الثقافية في الإنسان

لا تستند مقولة "الإنسان كائن ثقافي بالطبع" في هذا البحث إلى منهجية تحليل العقل فحسب، بل تعتمد أيضاً على ما يتضمّنه رصيد النقل في الثقافة الإسلامية، وفي طليعته القرآن الكريم. وسنحاول في ما يأتي اكتشاف مركزية الرموز الثقافية في هوية الإنسان من خلال الآيات التي ورد فيها ذكر "السمع" وكلمة "روحي" على التوالي.

#### ١. مفارقات السمع والبصر عند الناس:

من اللافت للنظر أنّ عامة الناس وخاصتهم في المجتمعات البشرية يَعُدّون البصر أهم من السمع، فينظرون –مثلاً– إلى إعاقة العمى بوصفها أخطر وأبشع من إعاقة الصمم.

وهذا أمر جائز؛ لأنّ العمى ظاهرة فيزيولوجية مادية تراها عيون المبصرين، خلافاً للصمم الذي لا يتجلّى فيزيولوجيّاً وماديّاً للناظرين مثل العمى، الأمر الذي جعل معظم الناس يميلون إلى عدِّ حاسة البصر أكثر أهمية وقيمة من حاسة السمع. وهي رؤية جماعية شعبية لا تتعارض مع التحليل الموضوعي للظاهرة فقط، كما سنرى، وإنّما تتعارض مع ما تشير إليه الآيات الكريمة التي تتحدث عن السمع والبصر. وينبغي الإشارة هنا إلى أنّ قيمة الأشياء لا تنبع من طبيعتها الذاتية فحسب، بل من استعمالها واسطةً لتحقيق أشياء أُخرى، وينطبق هذا على حاسة السمع لدى الإنسان. فالأهمية العظمى لحاسة السمع لديه لا تُعزى مباشرةً إلى السمع نفسه، إنّما تأتيه بطريقة غير مباشرة من منظومة الرموز الثقافية (اللغة، والفكر، والدين، والمعرفة/ العلم، والقوانين، والأساطير، والقيم، والمعايير الثقافية) التي ينفرد بها الإنسان عن غيره من الكائنات، كما رأينا. ولو كان الأمر يرجع مباشرةً إلى حاسة السمع فقط لما تأهّل الجنس البشري وحده للسيادة في هذا العالم. وعلى هذا، يمكن التعبير عن الهوية المميّزة للإنسان بالمعادلة الآتية:

**الإنسان = الرموز الثقافية + السمع**

فلا تستطيع الاستعدادات والمؤهّلات الفطرية للرموز الثقافية في الإنسان أن ترى النور، وتتطور، وتبلغ أشدّها، إذا وُلد الإنسان أصم، أو أصبح أصم في سِنيّ طفولته المبكّرة. وبعبارة أُخرى، لا وجود للإنسان بوصفه كائناً ثقافياً في الصميم من دون تفاعل بين عنصري الرموز الثقافية وحاسة السمع لديه، اللذيْن يُمثِّلان الركيزتيْن الأساسيتيْن في تكوين هويته الثقافية.

**٢. العلاقة بين السمع والرموز الثقافية:**

أُتيح لي اكتشاف العلاقة بين حاسة السمع والثقافة لدى الإنسان في ٢٠١٢/١٢/٨م، أثناء سيري بتونس العاصمة، قاصداً إحدى المكتبات. ومَردّ هذا الاكتشاف ملاحظتي أنّ ذكر "السمع" في آيات القرآن الكريم يتقدّم على ذكر "البصر"، وأنّ صفة "السميع" لله تعالى تتقدّم على صفة "العليم". فكان النقل (القرآن الكريم) هذه

المرّة هو المصدر الأول الذي ألهمني لكي أبحث بوساطة العقل عن حكمة تقديم السمع على البصر في الآيات الكريمة؛ إذ نبدأ عادة أبحاثنا انطلاقاً من ملاحظة الظواهر الميدانية في سلوكات الأفراد وبُنى المجتمعات وحركاتها. وتلك هي منهجية العقل في مصطلح الثقافة الإسلامية. ومن ثَمّ، كان الجمع دائماً بين العقل والنقل في مسيرة دراساتنا وأبحاثنا ومقالاتنا كما هو الحال في هذا البحث. وقد دفعتنا تلك الملحوظات حيال الآيات الكريمة إلى محاولة الفهم وتفكيك لغز ما وراء تقديم السمع على البصر في النص القرآني. وهذا ما تُحاول كشفَ النقاب عنه أقسامُ الجزء الآتي من البحث.

### ٣. تفوّق السمع على البصر في القرآن الكريم:

أحصينا أربع عشرة آية ذُكر فيها السمع دائماً قبل البصر عند الإنسان وفي أسماء الله عزّ وجلّ، وسنكتفي هنا بذكر ثلاثٍ منها: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ (الإنسان: ٢). ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ (الشورى: ١١). ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ (لقمان: ٢٨).

فتقديم ذكر السمع على البصر أربع عشرة مرّة في تلك الآيات يوحي بأنّ هذا التقديم أمر مقصود وليس مصادفة فحسب. ولعلّ من مسوّغات تقديم كلمات على أُخرى في نصوص اللغة العربية وغيرها من اللغات، إبرازَ أهمية الكلمات المتقدّمة على الكلمات المتأخّرة وأفضليتها. فتقديم كلمة "السمع" كاسم أو فعل أو وصف على مثيلاتها من كلمة "البصر"، يشير بكثير من الوضوح والشفافية إلى أنّ أهمية حاسة السمع تفوق كثيراً حاسة البصر.

### ٤. السمع أساس العلم:

حَفَلَتْ ثلاثون آية من القرآن الكريم بكلمة "السميع" التي تسبق دائماً كلمة "العليم" وصفين متلازمين لله تعالى. وسنذكر هنا أيضاً ثلاث آيات منها فقط: ﴿قَالَ رَبِّى يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ (الأنبياء: ٤). ﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ

وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (التوبة: ١٠٣). ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة: ٢٥٦).

فتكرار صفة "عليم" بعد صفة "سميع" توحي بأنّ العلم يعتمد دائماً على السمع. ومن ثَمّ، فالعلاقة بين السمع والعلم هي علاقة سببية.

إنّ الصدارة التي تتمتع بها كلمة "سميع" أمام كلمتي "بصير" و"عليم" في الآيات الست المذكورة وغيرها، تعني أنّ حاسة السمع أهم من حاسة البصر، وأنّها الوسيلة الفضلى لكسب رهان العلم. وهذا ما تؤكّده مقارنة الأعمى بالأصم منذ الولادة أو الطفولة المبكّرة في ميدان كسب المعرفة والعلم والإبحار فيهما. فمعروف أنّ بعض الأفراد المصابين بإعاقة العمى منذ الولادة أو بعدها بسنوات قليلة قادرون على أن يصبحوا علماء ومفكّرين مرموقين يُشار إليهم بالبنان في ميادينهم، في حين لا تسمح إعاقة الصمم منذ الولادة بالتأهّل للفوز في آفاق العلم والمعرفة؛ لأنّها إعاقة تحرم الإنسان من تعلّم اللغة، وكذا منظومة الرموز الثقافية؛ ميزة الإنسان الكبرى. ويُعَدّ طه حسين؛ الأعمى منذ الصغر، الأنموذج الأمثل الذي أثبت قدرة حاسة السمع على تمكين الأفراد من طلب العلم والمعرفة، والتفوّق فيهما بامتياز على الرغم من إعاقة العمى. وقد جاء في مقدّمة ابن خلدون أنّ "العدل أساس العمران"، وبالمثل يجوز القول إنّ "السمع أساس العلم".

### ٥. السمع منبع ثقافة الإنسان:

تكمن الأهمية الكبرى لحاسة السمع في كونها سبيلاً لتحقيق طبيعة الإنسان الثقافية، كما وقعتِ الإشارة. فالسمع هو -إذن- الوسيلة الأولى التي يستطيع بوساطتها الإنسان تعلّم اللغة والرموز الثقافية. علماً بأنّ منظومة اللغة والرموز الثقافية هي أبرز ما ينفرد به الجنس البشري عن غيره من الأجناس الأُخرى، وهي التي تعطيه مقاليد السيادة الكاملة (الخلافة) على بقية المخلوقات على سطح الأرض. ولتعرّف الدور الذي تضطلع به حاسة السمع في ميلاد منظومة الرموز الثقافية عند الإنسان والعلاقة العضوية بينهما،

يَحسُن أولاً معرفة طبيعة اللغة التي نَعُدّها أمّ الرموز الثقافية جميعاً. فابن جِنِّيّ[١٥] يُعرّف اللغة بِـ"أنّها أصوات يُعبِّر بها كلّ قوم عن أغراضهم". وهو تعريف دقيق جدّاً في جوهره، ومتناسق كثيراً مع تعريفات الباحثين المعاصرين للغة.

وفي الوقت الذي يؤكّد فيه ابن جِنِّيّ وعلماء اللغة المحدثون جانب الطبيعة الصوتية للرموز اللغوية، تتجلّى العلاقة الفطرية والعضوية بين اللغة كأصوات، والأذن بوصفها حاسة سمع لها. وتأسيساً على ذلك، يصعب تخيُّل ميلاد بقية عناصر منظومة الرموز الثقافية، كالفكر والدين والعلم والقيم، مع الغياب الكامل للغة كأصوات بشرية؛ أي إنّ اللغة هي المنشِئ والناقل للرموز الثقافية بين الناس في المجتمع الواحد، وبين الشعوب والأمم، وبين الحضارات الإنسانية جمعاء.

## ٦. الصمت عن الوظيفة الكبرى للسمع:

لا يكاد معظم المفسّرين للقرآن الكريم يذكرون شيئاً عن الحكمة من تقديم كلمة "السمع" على كلمة "البصر" في الآيات الكريمة؛ إذْ يكتفي بعضهم بذكر عدد الآيات (١٤) التي يرد فيها ذكر السمع قبل البصر. فالجنين في بطن أمه يسمع قبل أن يبصر، ولا يمكن للإنسان سماع صوتيْن مختلفيْن في آنٍ معاً، في حين يمكنه إبصار أكثر من شيء بالعين الواحدة. وبذا، يمكن فهم الحكمة من إيراد السمع بالإفراد، وإيراد الإبصار بالجمع. ومع أنّ هذا الوصف الإيجابي لبعض معالم حاسة السمع يُعَدّ وصفاً موضوعيّاً للسمع في حدّ ذاته، إلاّ أنّه يصعب على المفسّرين وغيرهم الاهتداء إلى أهم وظيفة يؤديها السمع (أهم ما يُميِّز الجنس البشري من بقية الأجناس)، وهي منظومة الرموز الثقافية.

يُفترض أنّ لهؤلاء جميعاً إدراكاً ما بوجود الرموز الثقافية عند الإنسان، ولكنّ هذا الإدراك (العادي البسيط) لا يكفي لتفسير سبب تفضيل السمع على البصر في الآيات

[١٥] أبو الفتح عثمان بن جني المشهور بابن جني (ت ٣٩٢هـ) من أبرز علماء اللغة العربية، ولد في الموصل بالعراق، ونشأ وتعلم النحو فيها على أحمد بن محمد الموصلي الأخفش، وأبي عليّ الفارسي. تبحر في علوم اللغة والبلاغة، ووضع أصولا في الاشتقاق ومناسبة الألفاظ للمعاني. له أكثر من خمسين كتاباً، أشهرها كتاب الخصائص الذي يبحث في بنية اللغة وفقهها.

الكريمة. ففهم ما وراء أفضلية السمع يحتاج إلى إدراك معرفي (إبستمولوجي) عميق بالنسبة إلى مكانة منظومة الرموز الثقافية في هوية الإنسان. أضف إلى ذلك أنّ نظرية الرموز الثقافية تُعلن بوعي كامل أنّ الرموز الثقافية هي بيت القصيد في كينونة الإنسان؛ الأمر الذي جعلها –في هذه الدراسة– تُنادي بأنّ الإنسان كائن ثقافي بطبعه قبل أن يكون اجتماعيّاً، أو سياسيّاً، أو اقتصاديّاً بالطبع، كما ورد في العديد من نظريات العلوم الاجتماعية والإنسانية الحديثة.

إنّ مقولة هذه النظرية تُعطي مشروعية واضحة وصريحة لتفضيل السمع على البصر. فالسمع –وليس البصر– هو الأساس الضروري لتعلّم اللغة، ونشأة منظومة الرموز الثقافية عند الإنسان؛ أي إنّ حاسة السمع هي الملكة المسؤولة عن نشأة منظومة الرموز الثقافية، وحمايتها، وتطويرها، واكتمالها عند بني البشر كافة.

وقد يتوارد إلى روع القارئ سؤال مفاده: ألا تُؤهّل هذه الوظيفة السامية السمع لنيل تأشيرة الأفضلية على البصر وغيره من حواس الإنسان الأُخرى كما تُشير آيات القرآن الكريم؟ فيجاب عن المطروح بالإيجاب، وبالأهمية العظمى لحاسة السمع التي تتجلّى في كونها الوسيلة الأولى والفضلى لخلق عالم الرموز الثقافية المميّزة، الذي يُؤهّل الإنسان وحده ليكون سيد هذا العالم بسبب تمكين الرموز الثقافية له من تعلّم الأسماء كلها.

يتضح ممّا سبق، ومن أطروحة النظرية، أنّ هوية الإنسان هي هوية رمزية ثقافية في الصميم، يتميّز بها عن غيره من الكائنات بسبب تمتعه بكلٍّ من حاسة السمع، ومنظومة الرموز الثقافية. في حين حُرِمتْ من هذه الأخيرة الأجناسُ الأُخرى؛ الأمر الذي جعلها عاجزة –رغم تمتعها بالسمع– عن إنشاء منظومات ثقافية مشابهة لمنظومة الرموز الثقافية لدى الإنسان. وعلى هذا، فإنّ زمالة السمع والرموز الثقافية هما شرطان أساسيان ومؤسسان لظهور الإنسان ككائن متميّز وقادر وحده على السيادة (الخلافة) في هذا العالم المترامي الأطراف. ومن هذه الرؤية يتجلّى سموّ دور السمع على دور البصر –في التحليل العقلي والتراث النقلي– في كسب الإنسان رهان هويته الثقافية التي يتميّز بها

على بقية المخلوقات على وجه الأرض ويعلو بها عليهم. وهكذا، يتضح جليّاً أنّ ثنائية السمع والرموز الثقافية تجعل من الإنسان كائناً ثقافيّاً بالطبع.

إنّها نظرية تختلف –معرفيّاً وفكريّاً– عن نظريات الماركسية والبنيوية والتحليل النفسي، وعن رؤى مدارس العلوم الاجتماعية والإنسانية الحديثة التي لم تطرح منظومة الرموز الثقافية بوصفها مركز ثقل أولاً في طبيعة الإنسان وهويته، ناهيك عن ذكر الدور الحاسم لحاسة السمع في ميلاد منظومة الرموز الثقافية لدى الجنس البشري فقط، كما سبق بيانُه في مقولة هذه الملحوظات الميدانية والتأملات الفكرية حيال العلاقة العضوية الأصيلة بين حاسة السمع لدى الإنسان، ومنظومة الرموز الثقافية. كل ذلك يُبرز عظمة دور السمع التي تأتي من مصاحبته وخدماته الثمينة لأهم شيء في الإنسان؛ منظومة الرموز الثقافية. ألا تُشبه هذه العلاقة بين منظومة الرموز الثقافية والسمع ما يتضمّنه القول المعروف "وراء كل رجل عظيم امرأة؟"

## ٧. التأويل الثقافي لكلمة "روحي" في القرآن الكريم:

إنّ التأويل العميق والبديل لبعض الآيات الكريمة من النص القرآني سيُفضي –في السطور الآتية– إلى نتيجة مفادها أنّ القرآن الكريم ينظر إلى البشر بوصفهم كائنات رمزية ثقافية في الصميم. ولكي نتعرّف طبيعة الرموز الثقافية وأهميتها في هوية الإنسان من المنظور القرآني؛ علينا الاستعانة بنص القرآن الكريم نفسه الذي يُعَدّ المرجع الأول للإسلام في شتّى المناحي والميادين.

وتأسيساً على ذلك، فنحن نقدّم هنا الرؤية المعرفية القرآنية لطبيعة الرموز الثقافية. وفي حال نجحتْ قراءتُنا في فهم مضمون الآيات الكريمة المتعلقة بالرموز الثقافية، فإنّنا نكون قد كسبنا الرؤية المعرفية الإسلامية الصحيحة عن طبيعة الثقافة. فضلاً عن تسليح أنفسنا بأَقْوَمِ مفهوم إسلامي للثقافة يُشجّع الباحث على ترشيحه للمقارنة، وربّما المنافسة مع مفهوم الثقافة كما وقع –ويقع– استعماله في العلوم الاجتماعية المعاصرة. ويمكن لهذه العملية المعرفية أن تساعد على بناء مفهوم للثقافة، ذي مصداقية أكبر بالنسبة إلى الباحثين المهتمين بالشأن الثقافي من منظور الرؤية المعرفية الإسلامية على الخصوص.

وفي حال وجدنا أنّ الرؤية القرآنية للرموز الثقافية تتشابه أو تتطابق مع تحليلنا العقل-المنهجي السابق لها، فإنّنا نكون قد وُفّقنا للجمع بين العقل والنقل، وهي المنهجية المثالية في الفكر الإسلامي الأصيل. إنّ منهجيتنا في كشف الرموز الثقافية وطبيعتها في النص القرآني تتمثَّل في ثلاث خطوات، هي:

- هل توجد إشارات واضحة في القرآن الكريم تُميّز الإنسان عن غيره في خلافة الله على الأرض؟

- هل توجد آيات قرآنية تتحدث بصراحة مطلقة عن تميّز الجنس البشري عن بقية الأجناس الأُخرى؟

- إلى أيّ شيء تعزو الآيات الكريمة تميّز الجنس البشري وتفوّقه؟

بدايةً، يحفل النص القرآني بالعديد من الآيات الكريمة التي تخص الإنسان بمكانة متميّزة عن سائر المخلوقات الأُخرى؛ سواء كانت روحية كالملائكة، أو حيوانات ودواب أُخرى تعيش على هذه الأرض مثل الإنسان. وبعبارة أُخرى، فصورة الإنسان في القرآن الكريم هي صورة الكائن الفريد الذي يحتل المرتبة الأولى من حيث الأهمية -بعد الله- في هذا العالَم (الكون). ومن ثَمّ، فلا منازع له على الإطلاق في تأهّله لإدارة شؤون هذا العالم، واستلام مقاليد السيادة (الخلافة) فيه. ولندع آيات القرآن الكريم تُشخّص لنا بقوة تلك المكانة الفريدة التي يحظى بها الجنس البشري وحده من بين الكائنات الأُخرى. وسنقتصر هنا على إبراز ذلك بإيراد خمس حالات تحدث فيها القرآن الكريم بكل وضوح عن تميّز الإنسان عن غيره من المخلوقات الأُخرى. نبدأها بالآية التي وصفت آدم الإنسان بأنّه خليفة الله في الأرض ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة: ٣٠)، ولا يحتاج المرء هنا إلى شرح مدى أهمية هذا المنصب (خلافة الله على الأرض التي وُليّها الإنسان دون سِواه من الملائكة والمخلوقات الأُخرى).

أمّا مميّزات الإنسان المطلقة التي تحدثت عنها الآيات الثلاث بعد تلك الآية مباشرة السورة، فهي تتمثَّل في اصطفاء الله لآدم بالمعرفة والعلم أكثر من المخلوقات الأُخرى، بمَن فيها الملائكة ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ

إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ (البقرة: ٣١-٣٣).

ونتيجة للميزتين السابقتين اللتيْن لم تنلهما الملائكة وبقية الكائنات، وتفرّد بهما الإنسان وحده؛ جاء أمر الله للملائكة بالسجود لآدم دون غيره، كعلامة تكريم وتمييز ثالثة لآدم: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (البقرة: ٣٤). أمّا الآية السبعون من سورة الإسراء فقد أبرزت سمتي تميّز بني آدم عن غيرهم من مخلوقات الأرض بإيراد لفظتي "التكريم"، و"التفضيل": ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ (الإسراء: ٧٠).

فهذه الآيات الكريمة تُوضّح بما لا يدع مجالاً للشك أنّ الإنسان كائن خاص متميّز متفوّق على غيره من المخلوقات والملائكة. وعلى هذا، فإنّ الرؤية القرآنية للجنس البشري تُمثِّل قطيعة معرفية (إبستمولوجية) كاملة مع نظرية التطور لدارون وأصحابه؛ إذ يُمثِّل خلق آدم في الرؤية القرآنية حالة خاصة في الخلق، هي في قطيعة مع كلٍّ من الملائكة وعوالم المخلوقات هنا على الأرض. وبما أنّ خلق آدم تَميّز عن غيره بهبة المعرفة (العلم) التي وهبها الله إياه دون سِواه، فقد جاءت مشروعية خلافة آدم لله؛ بتكريمه، وتفضيله في الأرض، وسجود الملائكة له.

وممّا يُلفت الانتباه وجود آيتين كريمتين تربطان سجود الملائكة لآدم بنفخ روح الله فيه؛ وذلك في سورتي (الحجر :٢٩) و (ص: ٧٢) ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾. إنّ التساؤل عن معنى كلمة "رُوحِي" الواردة في هاتيْن السورتيْن هو تساؤل مشروع؛ لأنّ الصيغة التركيبية لكلمات الآية الكريمة تفيد بأنّ طلب سجود الملائكة لآدم أعقب نفخ روح الله فيه؛ أي إنّ هناك علاقة قوية –إن لم تكن سببية– بين عملية نفخ الروح الإلهية في آدم ودعوة الله الملائكة إلى السجود له. وكما هو معروف، فإنّ لكلمة "الروح" في القرآن الكريم معاني مختلفة، يأتي في طليعتها بثّ الحياة في الكائنات.

وقد تَبيَّن لي من اطلاعي على عدد من كتب المفسّرين أنّ معظمها يرى أنّ لفظ "روحي" في الآية الكريمة الآنفة الذكر يعني القدرة على بثّ الحياة في الكائنات. فقد ورد في تفسير الجلالين ما نصه: "وإضافة الروح إليه تشريف لآدم. والروح جسم لطيف يحيا به الإنسان بنفوذه فيه... ."[١٦] أمّا المفسّر عفيف عبد الفتاح طبارة فيقدّم لنا هذا الشرح التفسيري لمعنى هذه الكلمة: "ونفخت فيه من قدرتي أو بعبارة أخرى فإذا أفضت عليه ما يحيا به من الروح التي هي من أمري... فخروا له ساجدين."[١٧]

ونختم بتفسير الشيخ متولي الشعراوي؛ إذ يصوغ معنى روح الله ونفخها في آدم على النحو الآتي: "والنفخ من روح الله لا يعني أن النفخ قد تم بدفع الحياة عن طريق الهواء في فم آدم. ولكن الأمر تمثيل لانتشار الروح في جميع أجزاء الجسد، وقد اختلف العلماء في تعريف الروح، وأرى أنه من الأسلم عدم الخوض في ذلك الأمر، لأنَّ الحق سبحانه هو القائل "يسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا."[١٨]

فواضح من مضمون هذه التفاسير أنّ معنى لفظ "روحي" اقتصر على معنى قدرة الله على بثّ الحياة في آدم التي لا يعرف البشر أسرارها فحسب. ومن ثَمّ، فقد دعا الشيخ الشعراوي إلى تحاشي الخوض فيها.

إنّ الاقتصار على هذا التفسير لمعنى كلمة "روحي" لا يسمح لآدم الإنسان بتبوّؤ منصب خلافة الله في الأرض وسجود الملائكة له تكريماً لخصوصية خلقه وتميّزه. فالله لم يبثّ الحياة في الإنسان فحسب، بل بثّها أيضاً في الكائنات الحية جميعها. ومن ثَمّ، فمجرد بثّ الحياة في الإنسان لا يؤهّله وحده لخلافة الله على الأرض. لذا، لا بُدّ من البحث عن معنى آخر للفظ "روحي" يُفسّر بقوة مكانة تميّز الإنسان وتفوّقه على بقية المخلوقات في إدارة شؤون الأرض بوصفه خليفة لله.

وهنا يأتي –في رأينا– دور العلوم الاجتماعية في مساعدة مفسّري القرآن الكريم، وهديهم إلى المعنى المناسب الذي ينبغي أن تناله كلمة "روحي" في الآية الكريمة ﴿ فَإِذَا

[١٦] جلال الدين المحلي، جلال الدين السيوطي. **تفسير الجلالين**، تفسير الآية ٧٢ من سورة ص.
[١٧] طبارة، عفيف عبد الفتاح. **روح القرآن: تفسير سورة البقرة**، مرجع سابق، ج٢٣، ص١٤٥.
[١٨] **تفسير الشيخ متولي الشعراوي**، مج١٢، ص٧٦٩٤.

سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ (الحجر: ٢٩). فكثير من المفسّرين المحدثين يستعينون باكتشافات العلوم الحديثة على تفسير العديد من الآيات الكريمة المتعلقة بخلق الإنسان وعمل أعضائه، ومن ذلك الحديث عن الظواهر الطبيعية في الكون، مثل: الشمس، والقمر، والنجوم، والجبال، والبحار، والبراكين، والزلازل؛ ممّا عزّز من فكرة إعجاز القرآن، فازدادت المؤلفات، وكثر انعقاد الندوات والمؤتمرات في هذا الميدان بالعالم الإسلامي المعاصر. وإنّنا نتفق مع المفكّر الإسلامي وعالم الجيولوجيا الدكتور زغلول النجار الذي يؤكّد أنّ فهم العديد من الآيات الكريمة مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالاكتشافات العلمية ذات الصلة بالإنسان والظواهر الطبيعية للعالم (الكون).

والمفسّرون المحدثون مطالبون هم أيضاً، وبالدرجة نفسها، بالإفادة من الرصيد المعرفي العلمي للعلوم الاجتماعية المعاصرة في ما له علاقة بفهم سلوك الأفراد والجماعات، وحركة المجتمعات، والمعالم الثقافية البشرية. فهذه العلوم تساعد –ولا شكّ– على استكناه معنى كلمة "روحي" في الآية الكريمة المشار إليها أعلاه.

وقد أجمعتْ علوم الأنثروبولوجيا والاجتماع والنفس على أنّ الإنسان يتفوّق على غيره من الكائنات الأُخرى، ويتميّز عنها بما تُسمّيه تلك العلوم بالثقافة (Culture)، أو ما أطلقنا عليه نحن في هذا البحث اسم "الرموز الثقافية" (اللغة، الفكر، الدين، المعرفة/العلم، الأساطير، القوانين، القيم، الأعراف الثقافية)؛ أي إنّ الجنس البشري ينفرد بتلك المنظومة من الرموز الثقافية، التي أهّلته وحده في الماضي، وتؤهّله اليوم وغداً، إلى أداء مهمة الخلافة في الأرض. وبعبارة أُخرى، أصبح لفظ ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ يدل على أنّ النفخة الإلهية في آدم هي في المقام الأول نفخة ثقافية بالمعنى المعاصر الذي خَصَّت به العلومُ الاجتماعية مصطلحَ الثقافة. فبهذه الأخيرة يُفسّر علماء العلوم الاجتماعية تميّز الإنسان وسيادته في هذا العالم على بقية المخلوقات. ومن ثَمّ، فإنّ لفظ ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ لا بُدّ أن يعني أولاً نفخة الرموز الثقافية في آدم وحده، التي أعطته –دون سواه– مقاليد الخلافة في الأرض، وما تبعها من سجود الملائكة له. فبهذه القراءة الثقافية لمعنى كلمة "روحي" في الآية الكريمة يتضح لنا مدى تحسّن مصداقية تفسير معاني آيات القرآن

الكريم؛ لو استعان المفسّرون بالرصيد العلمي الحديث لكلٍّ من علوم الطبيعة وعلوم الإنسان والمجتمع على حدّ سواء.

وكما ذكرنا، فإنّ ما أوردته كتب المفسّرين لمعنى "النفخة الروحية الإلهية" في الآية الكريمة يبقى غامضاً؛ الأمر الذي يتطلّب ابتكار منهجية جديدة تتجاوز مبادئ المنهج الوضعي، وتعمل على تحريرنا من استعمال رموز غير محددة لا تُفضي إلى فهم قريب أو أكثر واقعية لطبيعة النفخة الروحية الإلهية التي يتحدث عنها القرآن الكريم.

ومن أجل استجلاء الغموض الذي يحيط بطبيعة النفخة الروحية الإلهية، ارتأينا تبنّي المنهجية الآتية:

١. انتهاج طريقة موضوعية -بمؤشرات محسوسة- لتعرُّف العناصر التي يتميّز بها الجنس البشري عن بقية الأجناس الأُخرى، وتجعله يتصف بالتفوّق والسيادة عليها. وكما أشرنا من قبل، فإنّ منظومة اللغة والرموز الثقافية (اللغة، الفكر، الدين، المعرفة/ العلم، الأساطير، القوانين، القيم، الأعراف الثقافية) هي التي تُميّز -أكثر من غيرها- صفات الجنس البشري عن غيره من الأجناس الأُخرى.

٢. إنّ الآيتين الكريمتين المشار إليهما آنفاً تتحدثان بوضوح عن مكانة الإنسان المتميّزة بين بقية الكائنات الأُخرى في هذا الكون، بمَن فيها الملائكة أنفسهم الذين دعاهم الله إلى السجود لآدم. ويبدو من سياق هاتين الآيتين أنّ نفخة روح الله في ذات الإنسان هي السبب الرئيس وراء تبوّؤ الجنس البشري هذه المكانة الخاصة في الكون. فالتعبير القرآني في الآيتين يوحي بأنّ الله طلب إلى الملائكة السجود لآدم بعد -وليس قبل- نفخة روح الإله في صُلْب الذات الآدمية.

إنّ التحليل الموضوعي للنص القرآني في هذا الصدد يشير بكل وضوح إلى تفوّق جنس الإنسان وسيادته على بقية الأجناس الأُخرى. فمن جهة، تُرجع العلوم الاجتماعية الحديثة، مثل علم الاجتماع وعلم النفس وعلم الأنثروبولوجيا، تفوّق الجنس البشري على

بقية الأجناس الأُخرى إلى تميّز الإنسان بمهارات عالم الرموز البشرية. ومن جهة أُخرى، يُستوحى من النص القرآني أنّ سيادة الإنسان وخلافته في الكون ترتبطان شديد الارتباط بنفخة روح الله في صميم ذات الإنسان. وفي رأينا، فإنّه لا يوجد أيّ تعارض بين هذين المنظورين؛ إذ يمكن الجزم بأنّ الرؤية القرآنية تنظر إلى الرموز الثقافية بوصفها أهم جزء – على الأقل– من نفخة روح الله في الإنسان. ومن ثَمّ، يتفق المنظوران على الدور الحاسم الذي تؤديه الرموز الثقافية في تميّز الجنس البشري وتفوّقه على بقية الكائنات الحية الأُخرى. ومع ذلك، فقد تكون لنفخة روح الله في الذات الآدمية معنى أوسع من مجرد مفهوم الرموز الثقافية؛ أي إنّ نفخة روح الله تشمل كل شيء يُميّز البشر عن غيرهم من الكائنات. ويبيّن الرسم أدناه النقاط المشتركة بين عالم الرموز الثقافية ونفخة روح الله، بوصفهما عنصريْن أساسييْن لتميّز الجنس البشري وتفوّقه.

**مصدر تميّز الإنسان وتفوّقه**

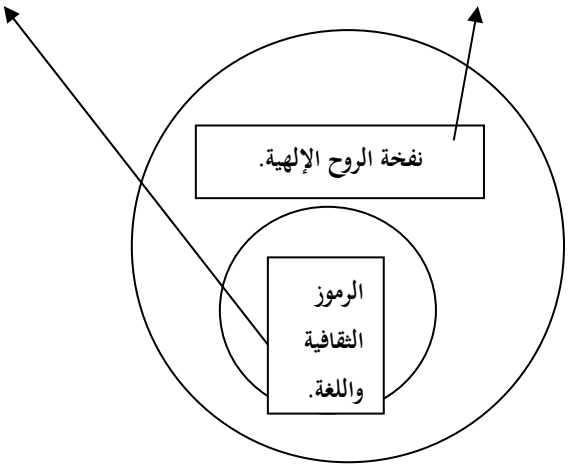


لقد أوضح تحليلنا المنهجي السابق الطبيعة الشاملة لنفخة الروح الإلهية. فنحن نرى أنّ هذه الأخيرة يجب أن تشمل أولاً الرموز الثقافية. وبعبارة أُخرى، فالرموز الثقافية يجب أن تُشكّل العنصرَ المركزي في نفخة الروح الإلهية، أو كلَّ نفخة الروح الإلهية نفسها في

ذات آدم. وبهذه الرؤية تصبح ماهية النفخة الروحية الإلهية أقل غموضاً ممّا كانت عليه في تفاسير المفسّرين المشار إليها آنفاً. ويُسهِم هذا الوضوح -بكل تأكيد- في إرساء فهم أفضل لمعنى قوله تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾، وما لذلك من انعكاسات إيجابية على المستوى النظري للبحث العلمي في منظومة الرموز الثقافية، وعلى المستوى التطبيقي المتمثِّل في دور الرموز الثقافية في تأهيل الجنس البشري وحده للخلافة في هذا العالم (الكون). فقراءتنا هذه عن طريق العقل والنقل لدلالات تفضيل السمع على البصر، وتأويلنا الخاص لكلمة "روحي" في النص القرآني؛ يُفيدان بأنّ منظومة اللغة والرموز الثقافية هي أهم ما يتميّز به الإنسان عن غيره من الكائنات.